جُوزَفين مَسعُود

سَمَايا

بيت الحكمة

بيروت



منشوراتنا القصصية

١	يا بياع السمسمية	لجوزفين وانطوان مسعود
٢	ابو الخيمة الزرقاء	لجوزفين وانطوان مسعود
٣	حدثني يا ابي	لكامل العبدالله
٤	اسرى الغابة	لانطوان مسعود
٥	ملح ودموع	لانطوان مسعود
٦	يوم عاد ابي	لرشاد دارغوث
٧	صندوق ام محفوظ	لروز غريّب
٨	جدتي	لجبران مسعود
٩	عنب تشرين	لادوار البستاني
١٠	عازفة الكمان	لاصموئيل عبد الشهيد
١١	وكان مازن ينادي	لتوما الخوري
١٢	كانت هناك امرأة	لرشاد دارغوث
١٣	يوم غضبت صور	لنضال ابي حبيب
١٤	بابا مبروك	لرشاد دارغوث
١٥	الأنامل السحرية	لجوزفين مسعود
١٦	المغني الكبير	لروز غريّب
١٧	جلجامش	لتوما الخوري
١٨	نور النهار	لروز غريّب
١٩	النسر الكريم	لانطوان مسعود
٢٠	رنين الخناجر	لجوزفين مسعود
٢١	النجمتان	لروز غريّب
٢٢	ابن العروس	لجوزفين مسعود
٢٣	جزيرة الوهم	لاملي نصرالله
٢٤	الغرفة السرية	لاصموئيل عبد الشهيد
٢٥	النار الخفية	لروز غريّب
٢٦	الحاج بجبح	لرشاد دارغوث
٢٧	جوهرة الجواهر	لجوزفين مسعود
٢٨	دهاليز الغرائب	لفكتور حكيم
٢٩	التجاريب	لولي الدين يكن
٣٠	الصحائف السود	لولي الدين يكن
٣١	سلسلة من حكايات بيدبا	(٦ كتب للاطفال)
٣٢	كوب من العصير	لجوزفين مسعود
٣٣	المنجّم «عصفور»	لروز غريّب
٣٤	مغامرات أوليس	لتوما الخوري
٣٥	وطلع الصباح	لجوزفين مسعود
٣٦	اسطورة البحر	لانطوان مسعود
٣٧	الشريط المخملي	لجوزفين مسعود
٣٨	سمايا	لجوزفين مسعود

الثمن : ٨٠٠ ق. ل.

جُوزَفين مَسعُود

سَمَايا

إبنة الفَضَاء وَالأرض

بيت الحكمة
بيروت

الغلاف والرسوم بريشة « ميّه »

الطبعة الأولى، بيروت ـ لبنان، نيسان (ابريل) ١٩٨٢

١ ـ وِشاحُ السَّماء

ـ « سَمايا » . . . « سمايا » . . . « سمايا » . . .

لم تُجب « سمايا » على نداء صديقتها ، بل ظلّت مستغرقةً في النَّظر من نافذة الفَضاء المُطِلَّةِ على الأرض .

إقتربت « هنايا » منها فهزَّتْها بشدَّة وعصبيَّة :

ـ هل أصبحتِ صمّاءَ ؟ . . . ناديتُك ثلاثَ مرّاتٍ من غير أن ألقى جواباً . أم إنَّك تنظرين الى شيء مَلَكَ عليك حواسَّك كلَّها ؟

إرتبكتْ « سمايا » قليلاً . ثمَّ ما لَبِثَتْ أن ابتعدت عن النافذة وهي تقول :

- مَللتُ عالمَنا الفضائيَّ هذا، لذلك ترينَني أتسلّى بمراقبة سكّان الأرض.

- وهل شؤونُ سكّان الأرض مسلّيةٌ لذيذة إلى هذا الحدّ حتى تُنسيَكِ ما يدورُ حولَكِ؟ دَعينا أيّتُها الأميرةُ من شؤون الأرض، وهلمّي بنا إلى قاعة العَرش، فبقيّةُ الوَصيفاتِ بانتظارك هناك، وقد أَرسَلْنَني في طلبك.

سارعَتْ «سمايا»، حفيدة ربّةِ الفضاء، فانضمّتْ إلى وَصيفاتها الثّلاث. كُنَّ كالبُدور تألّقاً وجمالاً، غيرَ أنَّ «سمايا» كانت، إلى جمالها، تفوقُهُنَّ رقّةً وأُنوثةً. وتهادت برفقتهنّ فدخلت قاعة العَرْش، وأمام ربّتِها سجدتْ، وإلى يمينها جلَستْ.

شيئاً فشيئاً امتلأتِ القاعةُ بجُموعٍ غفيرةٍ من حُوريّات الفَضاء وملائكته. ورانَ على المكان

هدوءٌ مَهيبٌ قَطَعَتْه ربّةُ الفضاء قائلةً:

- أيُّها الحفلُ النّورانيُّ الكَريمُ! منذ أيّامٍ اختتمنا العام المنصرِمَ بأن أهدينا صفحة السماء غطاءً، هو وشاحٌ شفّافٌ خاطته أناملُ حوريّاتنا بخيطان مُرْهَفَةٍ سحريّة، امتزجتْ فيها ألوانُ جواهرِ الكون ببياض غيوم السّماء، وزُرْقَةِ مياه البِحار، وتَموُّجِ أزهار الرِّياض. إنّه تقليدٌ قديمٌ حديثٌ ثابرنا على القيام به أجيالاً بعد أجيال. وها نحن اليومَ، في بداية هذا العامِ، نجتمع من جديد لنفتتحَ معاً الأعمالَ في وشاح المستقبَل. فأرجو لجميع العاملين في هذا المشروع الجليلِ التوفيقَ والنجاحَ.

«والعمل، كما تعلمون، يتمُّ على مراحلَ متتابعةٍ متشابكةٍ. وستقوم حفيدتي «سمايا» فتشرح أمامَكم



أعمالَ الفِرق واللِّجان، والطرقَ الدقيقة التي ستسير عليها. والعمل في الوشاح يستند إلى تنسيق فنّيّ دقيقٍ، ومجهودٍ علميٍّ منظَّم، فالوشاح رمزٌ خالد كان، وسيظلّ، قِبْلَةَ أملٍ ورجاء لجميع سكّان المعمورة، تصبو إليه عيونُهم وقلوبُهم دائماً.

« وأختتم، يا أحبَّائي، كلمتي، فأقول: كلّ سنة وأنتم بخير. وإلى نهاية السنة المقبلة ».

والتفتت ربَّةُ الفضاء إلى الجوقة الموسيقيَّة فأشارت إليها ببدء الاحتفال. وللحال امتلأت أرجاءُ الكون بتراتيل الملائكة، وأنغام آلات الطَّرب. وتهادتِ الحوريَّاتُ الراقصاتُ على الأنغام كالفراشات خفَّةً ورشاقةً.

* * *

وهكذا عاش سكَّان الفضاء في جوٍّ روحانيّ عميق استغرق وقتاً طويلاً. وأخيراً رفعت ربَّة

الفضاء صَوْلجانَها معلنةً الرجوعَ إلى جوّ العمل.
فانتصبت «سمايا» وتوجّهت إلى الحضور قائلةً:

«أخَواتي، إخواني، سأقدّم لكم الآنَ الفِرقَ التي ستقوم على صنع وشاح سمائنا المقبل. وسأشرح أمامكم المهامَّ الملقاةَ على عاتق كلّ فريق. ووصيفاتي الثّلاثُ سيكُنَّ همزةَ وصل بيني وبين الفِرق، أراقب بوساطتهنَّ سيرَ الأعمال وتطوّرَها.

– هذه «سنايا» المشرفةُ على فريق الغَوازل.

وغادرت «سنايا» مكانَها وانضمّت إلى مجموعةٍ من الصَّبايا النَّضِراتِ حَمَلْنَ بأيديهنَّ مغازلَ من ذهب وفضّة ليغزلن بها الخيطان.

«مهمّةُ هذا «الفريقِ، يا أعزّائي، هي البحثُ عن الغيوم الناصعة البيضاءِ ليحوّلْنَها بمغازلهنَّ خيوطاً دقيقةً ناعمة».

– أمّا «هنايا» فرئيسةُ فريق جمع الألوان...

وسارعت «هنايا» فالتحقت بفريقها، وهو عبارةٌ عن مجموعة كبيرة من صبايا وملائكة اختلط بهم عددٌ كبيرٌ من الفَراشات والطيور والأسماك.

«... ومهمّةُ فريق الألوان ذاتُ تفرُّعاتٍ كثيرة تتطلّبُ المهارةَ والدقّةَ في البحث عن الألوان الموزّعة في أنحاء الكون الواسعة. ولذا جزّأتُ الفريقَ إلى مجموعاتٍ مصغّرةٍ هي التالية:

– مجموعة الشروق: تستيقظُ فجرَ كلِّ يومٍ في انتظار شروق الشمس، فتسارع إلى جمع أشعّتها الذّهبيّةِ الناعمة.

– مجموعة المَغيب: تترقّبُ غياب الشمس لتَرْشُفَ منها ألوان النارِ الملتهبة.

- مجموعة فَراشات الرياض: تَجوب الحدائق والخمائلَ سعياً وراءَ ألوانِ الأشجارِ والأَزهار المختلفة.

- مجموعة أسماك الأعماق: تغوص في الأنهار والبحار فتستخرج منها زُرْقَتَها على اختلاف ظِلالها وتموّجاتِها.

- مجموعة طيور السماء: تَلج الفضاء ليلاً لتَنْهَلَ من كواكبه وأقماره النورَ والضِّياءَ وبريقَ الجواهر».

وسكتت «سمايا» قليلاً، وقد لاح على مُحَيَّاها الجميلِ التَّعبُ والإجهاد. ولاحظت ربَّةُ الفضاءِ ذلك فرفعت صولجانَها معلنةً إيقاف الجلسة لبعض الوقت. وللحال تقدَّم فريقٌ من الحُوريَّات يَحْمِلْنَ إلى الحضور أنواعاً من المرطِّبات المنعشة. ثمَّ عُدْنَ

ثانيةً بأطباقٍ شهيَّة من الحلوى والفاكهة. وصدحت الموسيقى من جديد، فانشرحت لها الصدورُ، وطابت لها النفوسُ.

ولمّا انتهى الشرابُ والطعامُ رفعت ربَّةُ الفضاء صولجانَها معلنةً متابعةَ الجلسة. وقالت تُخاطبُ الجماهيرَ المجتمعة:

- أيُّها الحضور! لقد قدَّمت حفيدتي «سمايا» القسمَ الأكبرَ من برنامج العمل للعام المقبل، وها هي الآنَ تتابعُ توزيعَ ما تبقَّى من الأعمال.

نهضت «سمايا» فجثت بخشوع أمام جدَّتها. ثم استوت واقفةً وقد عاد إليها نشاطُها وحيويَّتُها، فقالت:

- شكراً لمولاتي وحمداً. فكلُّ ما شرحتُ

وفسَّرتُ كان من وحي إرشاداتها وتوجيهاتها القيّمة. والآن أُقدّم لكم صديقتي «مُنايا». إنّها المسؤولةُ عن الفريق العامل في مزج الألوان وصبغ الخيوط.

وإلى مجموعة من شيوخ السماء سارت «مُنايا»، ووقفت بينهم بتواضع وحياء.

وعادت «سمايا» تقول:

ـ على هذا الفريق تقعُ أصعبُ مرحلة من مراحل العمل وأدَقُّها. فَمزْجُ الألوانِ يتطلّبُ ذَوقاً رفيعاً وحسّاً فنّياً مُرْهَفاً، وتلوينُ الخيوط الدقيقة البيضاء يحتاج إلى العناية والسّهرِ في العمل.

«والآنَ يا أصدقائي سأقدّمُ فريقَنا الأخير. إنّه فريقُ النّواسج الماهرات اللواتي بأناملهنَّ سيحوِّلْنَ

الخيوطَ الملوَّنةَ الى وشاح زاهٍ، ثم يرصِّعْنَه بالكواكب والنجوم والشموس والأقمار؛ فتسطعُ السماءُ نهاراً بزرقة البحار والأنهار، وليلاً بصُفرة الذهب ولمعانِ الجواهر. أمّا هذا الفريق فيتألّف منّي ومن وصيفاتي الثّلاث، وسنُكِبُّ جميعاً على العمل حالما تصلنا أوّلُ دفعة من الخيوط الملوَّنة.

«والآن، بعد ما شرحتُ برنامج عملنا المفصَّلَ، أرجو أن نهتفَ بصوت واحد: عاشت ربّةُ الفضاء!.. عاشت على مدى الدُّهور!..»

وتصاعدت الهتافاتُ تشقُّ عُبابَ السَّماء وأَرْجاءَ الكون الرَّحيب. ثمّ تفرّقَ شَمْلُ المجتمعين بانتظار الغدِ، يومِ العمل والجدّ.

* * *

إنطلقتْ «سمايا» إلى غرفتها. تقدَّمت من

نافذة الفضاء وجلست إليها. ثم تَطاولتْ بأنظارها إلى الأرض كأنَّ مَغْنَطيساً سِحريّاً يشدُّها إليها. وكانت النافذة تُطلُّ على نهر عظيم يُعرف « بنهر الفضَّة »، وذلك لصفاء مياهه ولمعانها. ومن خلال هذه المياه كانت الأرض تظهر لسكّان الفضاء بوضوح وجَلاء: فالسماء تقع على ضفَّةٍ من النهر العظيم، والأرضُ تقع على الضفَّة المقابلةِ لها.

لم يكن يسترعي انتباهَ « سمايا » من الأرض إلاّ رقعةٌ صغيرةٌ، فقيرةٌ، جَدْباءُ، لا حياةَ فيها سوى شجرةٍ هَرِمةٍ تكاد تَنُوء بحمل السنين. وتحت هذه الشجرة جلس شابٌّ يبكي. إلى هذا الشابِّ شَخَصَتْ « سمايا » بأنظارها وجَوارحها، وقد اعتصرَ الحزنُ قلبَها. قالت لنفسها بحسرة:

– مسكينٌ أنت يا صديقي!.. ليتَني قريبةٌ منك

فأمسحَ عن صدرك الهمومَ كلَّها... ولكنْ ما حيلتي وأنا في الفضاء وأنت على الأرض؟

وأطرقتْ برأسها تفكِّر... إنَّها أميرةُ الفضاء، تَملِك من القوى المتفوِّقةِ الخارقةِ طاقاتٍ كثيرةً: فنَظَرُها يخترق الأنهارَ والبحارَ، وسَمْعُها يلتقط أَوهن الأصواتِ وأَبْعدَها. باستطاعتها أن تطير في الفضاء فتعلوَ، وتعلو. وتطيعها النجومُ والغيومُ، وكلُّ عامل من عوامل الكون.

ولكنْ ما نَفْعُ هذه القوى كلِّها وهي عاجزةٌ عن مدِّ يد المساعدةِ لشابٍّ بائس حزين من سكّان الأرض؟!.

دخلت « هنايا » الغرفةَ، وكانت أكثرَ صديقاتِ « سمايا » قُرباً إليها، فشاهَدَتْها تبكي بحرقة:

– أتبكين يا حبيبتي؟.. آهِ! إنّني أَعرف سبب

بكائك. هي الأرضُ اللَّعينةُ، عُدْتِ تنظرين إليها، أليس كذلك؟

– صَدَقْتِ يا «هنايا»! إنّي أشعرُ بالعَجز وأنا الأميرةُ حفيدةُ ربَّة الفضاء العظيمة! لستُ قادرةً على مساعدة إنسان مسكين. فما رأيُك بذلك؟ تعالَي، بالله عليكِ، وانظري إلى حزنه وشقائه، فلا بدَّ أن تَرثي لحاله كما أرْثي...

وأطلّت الفتاتان من النافذة وأخذتا تراقبان الشابَّ الحزين.

– أنظري إليه يا «هَنايا»! أرأيتِ جمالاً بجماله، وطَلْعةً كطلعته؟ قلبي يَتَفجَّر حُرْقةً على شقائه.

– كيف تعرَّفْتِ إليه يا «سمايا»؟ كيف علمتِ

بخفايا أموره وأنتِ في الفضاء وهو على الأرض؟

– أُراقبه منذ أمدٍ بعيد. رأيتُه مرّةً يبكي فحنَّ قلبي عليه. وأَردتُ معرفةَ سبب بكائه فأخذتُ أُراقبه مطوّلاً. عرفتُ أنَّه يُدعى «بهاء». وهو من عائلة غنيَّة أمَّنت له طفولةً سعيدة. إلى أن كان يوم ماتت فيه أُمُّه وكان لا يزال صغيراً، ثمَّ تزوّج أبوه على أملِ أن يؤمِّن لولده أمّاً أخرى تسهر عليه وترعاه.

«ولكنْ خابَ ظَنُّ الوالد لمّا أدرك أنّ زوجته قد تحوّلت إلى امرأة شَرِسةٍ مُبغضة، أذاقت «بهاء» أصنافاً من العذاب والحرمان. وسرعانَ ما تُوُفِّي الوالدُ قهراً على ابنه، فسارعت الزوجةُ الشِّرِّيرةُ إلى طرد «بهاء» بعد ما حَرَمَتْه مالَه وأملاكَه، ولم تُعْطِهِ سوى ثورٍ عجوزٍ هرمٍ، وأَبعدَتْه إلى هذه البقعةِ الصخريَّة من الأرض.

« تألَّم « بهاء » كثيراً، وحاول أن يَفلح الأرضَ ليزرعَها. ولكنَّ جهودَه باءت بالإخفاق: فالصخور هنا كبيرة، وجَفافُ الأرض يحُول بينه وبين استغلالها. تضوَّرَ المسكينُ جُوعاً، وأخذ يدور على المَزارع يَطلب عملاً. ولذا تَرَيْنَه يستيقظُ مع الفجر ليعملَ في أحد الحقول النائية، ثمّ يعودُ في المساء إلى أرضه القاحلة وقد أَنهكَ التعبُ والإجهادُ جسدَه الطريَّ الغضَّ، فيجلسُ تحت الشجرةِ الباليةِ ليبكي سُوءَ طالعِه.

« كيف السبيلُ لمساعدة « بهاء » يا « هَنايا »؟ ساعِديني، بالله عليك »!

أمسكت « هنايا » بيد صديقتِها تهدّىء من رَوْعِها:

ـ هل نسيتِ أنّنا نعيش في الفضاء، وهو على الأرض، وبينَ عالَمَيْنا حواجزُ لا نهايةَ لها؟ دعي

التفكيرَ بابن الأرض جانباً، وفكِّري بالمسؤوليَّة الملقاةِ على عاتقك.

ـ هنا المصيبةُ الكبرى يا صديقتي! أصبحتُ عاجزةً عن التفكير بمسؤوليَّاتي الكثيرة. فصورةُ الشابِّ مغروسةٌ في قلبي لا تفارق مخيِّلتي أبداً. وأنا اليومَ عبدةٌ لهذه النافذةِ لا أقدر على الابتعاد عنها.

في هذه اللحظةِ دخلتِ الوصيفاتُ الأُخْرَيات فوقَفْنَ حائراتٍ أمام حزن أميرتهنَّ العميق. تساءلنَ بلهفةٍ عن سبب بكائها. فأخبرَتْهُنَّ « هنايا » بأمر « بهاء »، ابن الأرض الجميل الحزين، وتعلُّقِ الأميرة به ورغبتِها الجامحة في مدّ يد المعونة إليه.

جلستِ الفَتَياتُ واجماتٍ يُفَكِّرنَ بالمُعضلة التي طرأت على حياة الأميرة، وهنَّ حائراتٌ في إيجاد طريقةٍ للتخفيف من حزنها.

وفجأةً قالت « مُنايا » بحماسة :

ـ لقد وجدتُ حلاً للمشكلةِ يا « سمايا » !

وهتفت « سمايا » وصديقاتُها :

ـ وما هو الحلّ ؟! قولي ، ما هو ؟

ـ سَمعاً وطاعة يا عزيزاتي ! أَنْصِتْنَ لي قليلاً . ذكرتْ « سمايا » أنَّ الشابَّ فقيرٌ لا يملكُ من مَتاع الدُّنيا سوى أَرضٍ صخريَّةٍ ، وثورٍ هَرِمٍ ، وشجرةٍ بالية .

« وأنت يا « سمايا » أميرةٌ فضائيةٌ تملكين طاقاتٍ خارقةً هائلةً ؛ ونحن ، وَصيفاتك ، نملك بعضاً منها .

« هيّا بنا نوحّد جهودَنا : نُحرِّكُ العواصفَ ، فتهبُّ الرِّياح قويَّةً عاتيةً ، وتنضمُّ الغيومُ بعضُها إلى بعضها الآخر ، وتُرعد السماءُ وتبرقُ ، فتنهالُ الأمطارُ غزيرةً على أرض « بهاء » فترويّها . . .

« ولْنُثِرِ الصَّواعقَ فتَصبَّ على الصخور حُمَمَها فتُفَتِّتَها ، وتخترقَ جَوفَ الأرض فتفجِّرَ مياهَه ينابيعَ سخيَّةً . . .

« وهكذا تتحوَّلُ الأرض الصخريَّة إلى أرضٍ غنيَّةٍ صالحةٍ للزراعة . أمَّا الثورُ فلَمساتٌ من أناملنا تُعيد إلى جسده الواهي القوَّة والنشاطَ ، فيصبحُ قادراً على حراثة الأرض وحَمْلِ الأثقال . .

« والشجرةُ الهرِمةُ العَجوز تُحييها الأمطارُ ، فتعيد الحياة إلى جُذورها فتنمو وتشتدّ . . .

« أرأيْتُنَّ يا صديقاتي ؟ لقد حُلَّت الصِّعاب دفعةً واحدة ! »

صفَّقت « سمايا » بيديها وركضت إلى « مُنايا » تضمُّها بشدَّة :

ـ أنتِ عظيمة ! . . عبقريَّةُ التفكير ! . .

* * *

في تلك اللّيلةِ لم تنم الحوريّات قطُّ . كانت كلُّ واحدة منهمكةً في مهمّتها .

سارعت « سَنايا » إلى الغيوم فضمّت بعضَها إلى البعض الآخَر، فصارت كثيفـةً، سـوداءَ، قـاتمة . وحرّكَتِ الرياحَ فهبّت تُزَمْجرُ دافعةً بالغيوم إلى الأرض، وما لبثت الأمطارُ أن تساقطت غزيرةً متدفِّقة .

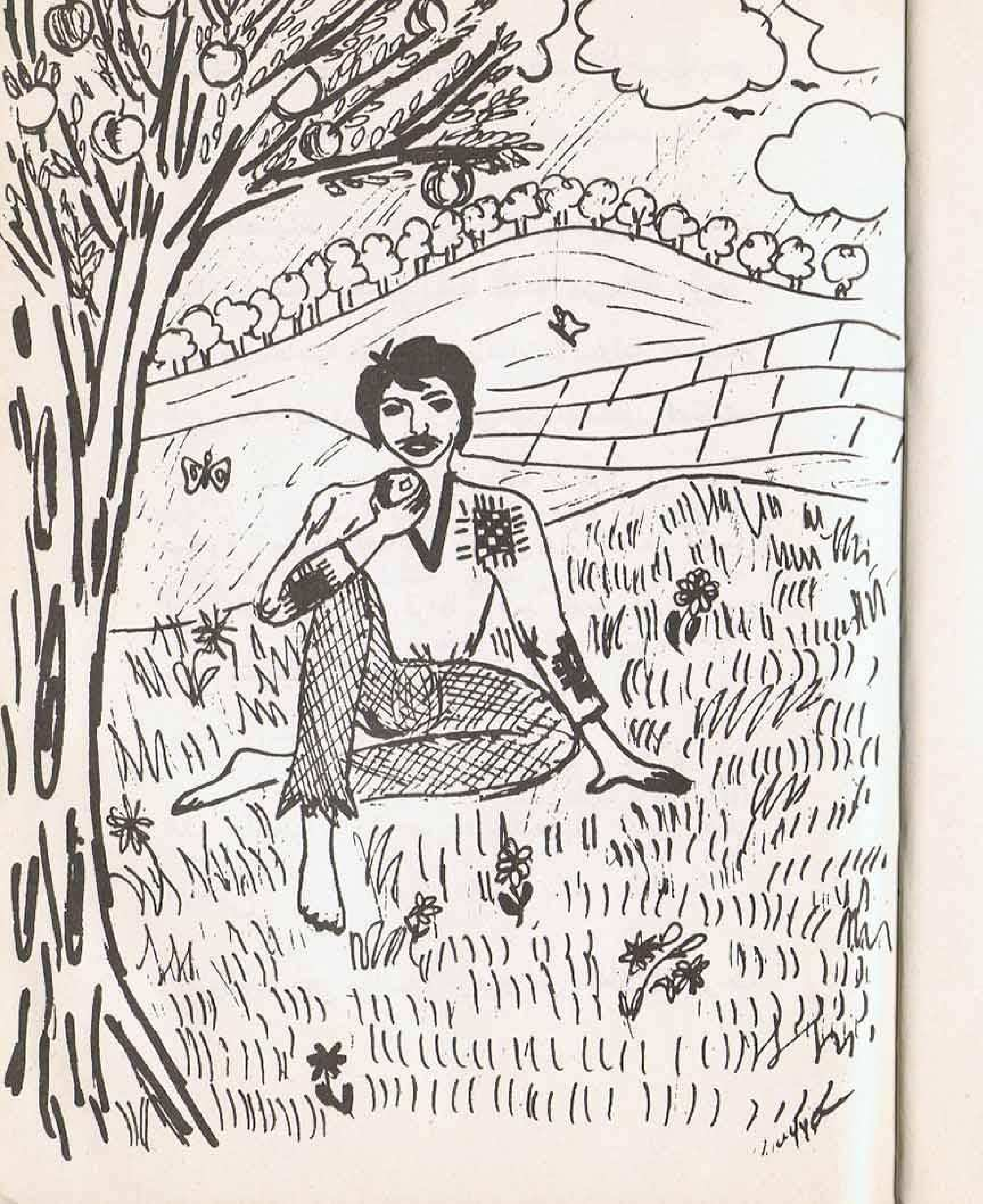
أمّا « هَنايا » فمدّت يدها إلى الفضاء الواسعِ ، فأمسكت ببعض الكواكب فحوّلَتْها إلى كُتَلٍ من النار اخترقتْ وجهَ الفضـاء، ونَـزَلـت على أرض « بهاء » صواعقَ غـاضبـةً شقّقـت فيهـا الصخـور وحوّلَتْها إلى فُتاتٍ ناعم . ومن بين الصخور انبجسَ يَنبوعُ ماء عليل سال في الأرض خيراً وبَرَكة .

ومدّت « مُنـايـا » أنـاملهـا الرشيقـة الطـويلـة

فاخترقت مياه نهر الفضّة، ووصلت إلى جسد الثور فدبَّت العافيةُ في أوصاله، فأخذ يَخُور بصوتٍ عالٍ ضارباً الأرضَ بقوائمه القويّة .

أمّا الشجرةُ فقد لوتِ العاصفةُ أغصانَها اليابسةَ وكسَّرَتْها،وسالـت قَطَراتُ المطـر إلى جـذورهـا فروَّتْها، فطَلَع من جِذْعِها البالي غصنٌ أخضرُ يانعٌ أخذ يَنمو وينمو حتى أصبح شجرةً كبيرة وارفةَ الظِّلال، مُثْقَلَةً بالأثمار الشَّهيّة .

وبعد انتهاء العمل وقفت الحوريّاتُ الأربعُ يراقِبْنَ الشابَّ النائمَ في بقعة أرضه .



٢ - إنْبثَاق الحيَـاة

إستيقظ « بهاء » من النَّوم بعد ليلةٍ قضاها في سُبات عميقٍ بالرّغم من العواصـف والصَّـواعـق. وبتَثاقُلٍ فتح عينَيه، ثمَّ تَحامَلَ على نفسه ووقف. عليه أن يُسرعَ إلى القرية النائيةِ ليعملَ خادماً في إحدى مـزارعهـا. ومـا لبـث أنْ نظـر حـولَـه بذهول! .. أتُراه ما يزال نائماً ؟! أفي يقظة هو أم في حُلُم؟! هذه الشجرةُ الوارفةُ المثقَلة بالثِّمار اليانعة تُذهله... إمتدَّت يده إلى إحدى الثمار، فقطفها وعضَّ عليها بنَهَم وشهيَّة... إنَّها لذيذةٌ،

طيّبة!.. وراح يأكلُ الثمرةَ بعد الأخرى حتى أشبع منها جوعَه.

وعاد ينظرُ حولَه من جديد: الأرض سوداءُ، حمراءُ، رطبةٌ، تغوص فيها قَدَمُهُ من فَرْط لِينها. من أين جاءتها الحياةُ بعد مَوات؟! وإذا به يسمع خريرَ ماء يتدفّق... ركض إلى مصدر الصوت، فشاهد بأمّ عينَيه قَطَراتِ الماء تَتَرَقْرَقُ في جَوف صخرة شَطَرَتْها الصاعقة شَطْرَين، ثمّ تتجمّع وتسيل في أرضه جَدْولاً رقراقاً. فمدّ يدَيه الى الينبوع وراح يشرب ويشرب، وهو لا يَرتوي...

خرّ «بهاء» على الأرض برهبة وخشوعٍ إزاء هذه المُعْجِزة. وشَخَصَ بأنظاره إلى السماء يصلّي ويتضرّع.

وغاب عن عالَمه، وغَرق في تأمّلاتٍ روحيّة

عميقةٍ وكأنّه شعر بروح والدَيه ترفرف حوله بحَنانٍ، تَحميه وتُؤاسيه وتهنّئه على نِعمته.

وفيما هو على هذه الحال طرقَ مسامعَه خُوارٌ قويٌّ، فانتصب واقفاً وصاح متعجّباً: «إنّه خوار الثور!.. هذه هي المرّةُ الأولى التي أسمع فيها خوارَه! ماذا حدث له يا ترى؟».

وركض «بهاء» إلى حيثُ ترك الثورَ فشاهده مكِبّاً على الأرض يلتهم أعشاباً لا نهاية لها تُغطّي وجه المرعى! فصاح من جديد:

- ربّاه! إنّها لَمُعجزةٌ أُخرى! ألثّورُ العجوزُ أصبح قوياً يَنْبِضُ نشاطاً!

ثمّ خاطب نفسَه بنشوة:

- إلى العمل يا صاحبي! فالأرضُ، والمياه،

والثور، جميعُها بانتظارك . فاجعلْ من هذه الرُّقعةِ الصغيرة جنَّةً من جنَّات الدُّنيا !

* * *

تَضاحكتِ الحوريّاتُ وهنَّ يُراقبن « بهاء »، وامتلأت قلوبُهنَّ بهجةً بسعادته . أمّا « سمايا » فزاد حُبّها للشابِّ تأجُّجاً ، فوقفتْ تنظر إليه بلهفةٍ وشوقٍ ظاهرَين . وشعرت « هنايا » بما يدور في خاطر صديقتها ، فقالت لها مُمازحةً :

ـ هل عاد الصَّفاءُ إلى قلب أميرتنا ؟ . . فصديقك « بهاء » لن يَذْرِفَ الدموع بعد اليوم ، فلديه من الأَعباء والمسؤوليّات ما لديكِ أيَّتها الجبيبةُ . فانسَي أمرَه ، وتذكَّري أنَّنا قد أَمْضينا ليلةً مُرهقةً ، وأنَّنا بحاجة ماسَّة لشيء من الراحة . فبانتظارنا غدٌ حافلٌ بالمهامِّ الصَّعبة .

٣ـ سِرُّ الشَّجَرة النَّاطِقَة

مضت الأيَّامُ سِراعاً . كان الفضاءُ خلالَها خَليَّةً تَعجُّ بالحياة وتَموجُ بالحركة . وسار العمل في الفِرق على قَدَمٍ وساق: فقد غُزِلَ قسمٌ من خيوط الغمام ، وصُبغ بأبهى الألوان ، وحُمل الى قاعدة النسيج حيثُ نُصب نَوْلٌ طويل عريض أكبَّت عليه الحوريّات يَنْسِجْنَ بخِفَّةٍ ورشاقة .

وكانت « سمايا » تراقب الأعمالَ فتنتقل من فريق إلى آخرَ ، وتُغدق على الجميع نصائحَها وإرشاداتِها .

ثَمَّ تعود إلى قاعدة النسيج لتُسهم في حياكة الوشاح السَّماويّ .

وبالرّغم من تلك الأعباءِ كانت تجد الوقت سانحاً لتُسرعَ إلى نافذة الفضاء وتراقبَ « بهاء » بعطف وحُنُوّ. رأته يَحْرِثُ الأرض، ثمَّ رأته يزرعها . وشاهدته يختار قطعة صغيرة قربَ اليَنبوعِ فيخصّصها لزرع الخُضْرة على أنواعها .

وراقَبَتْه يُسوّر الأرضَ كلّها بأنواع من الأشجار المُثْمِرة . كانت لا تَدَعُ عملاً من أعماله يفوتها .

وجادت الأرضُ على « بهاء » بعطائها السَّخِيِّ الخَيِّر، فنضجتِ الحبوبُ، وأيعنت الخُضْرَةُ، وأُثْقِلتِ الأشجارُ بشهيِّ الثّمار .

* * *

. . .وتتابعت المواسمُ . وكان « بهاء » يَحمل نِتاج كلِّ موسم إلى المدينة ليبيعَه . وبالمال الذي جمعه اشترى بقرةً حَلُوباً، وبغلاً نشيطاً استعان به على نقل الغِلال إلى المدينة .

وفي الخريف انتهى « بهاء » من أعمال المزرعة، فقام يَبني بيتاً له صغيراً . وما لبث أن أَتَمَّ بناءه بعد عملٍ مُضْنٍ . ولكنَّ فرحته بالبيت الجديد أَنْسَتْه كلَّ عَناء، فكان يَلِجُ غُرَفَه مَرّاتٍ ومَرّاتٍ سعيداً به سعادةَ الطفل بلعبته .

وعاشت « سمايا » في عالَمها تَحْلُمُ « ببهاء » وتفكِّر بطريقة تُوصلها إليه . وكثيراً ما شاهَدَتْها صديقاتها شاردة الذِّهن تفكِّرُ بعالم الأرض البعيد . وحاوَلْنَ إقناعَها بنسيان « بهاء »، ولكنّها كانت لا تُصغي إلى كلامهنَّ .

وفي إحدى الأُمسِيَّات كانت جالسةً كعادتها إلى النافذة تراقب الحبيبَ البعيد وتُناجيه بحَنان. شاهدته يستلقي تحت أغصان شجرته الأُولى، فخطر لها خاطرٌ رقصت له فرحاً: ماذا لو أَنطقتِ الشجرةَ بلسانها، فخاطبت حبيبَها من غير أن يدريَ بأمرها؟!

وما هي إلاّ دقائقُ حتى سمع «بهاء» صوتاً يناجيه من أعماق الشجرة:

ـ مساء الخير يا «بهاء»! أنا صديقتُك الشجرة، رفيقتُك منذ أوّل يوم وطئت فيه قدماك هذه الأرض. أتذكرُ يومَ نَزَعْتَ عنّي أغصاني اليابسةَ، ومسحت بحنانٍ على جذعي البالي؟ أتذكر يوم حفرتَ الأرض حولي لتُدخل إلى أحشائي شيئاً من القوّة والعافية؟ لقد كانت عنايتُك بي دواء لجسمي

الضعيف المهزول، فأَحْبَبْتُكَ لحنوِّك وعطفك. وسألتُ السماءَ التي تحرسك أن تساعدَني على النُّطق لأخاطبَك وتخاطبَني، فأُبْعِدَ الوَحشةَ عن نفسك.

وردَّ «بهاء» متعجّباً:

ـ أإنسانةٌ أنت أيَّتُها الشجرةُ، أم حوريَّةٌ نَزَلتْ من السماء لتُؤنسَ وَحْدَتي؟

ـ أنا مجرَّدُ شجرةٍ صديقة يا «بهاء». وأنا، ككلِّ كائنٍ حيّ، أتمتَّعُ بالأحاسيس والمشاعر. ولقد أفصحتُ عن مشاعري نحوَك بالعطاء: فأغصاني الوارفةُ، وثماري الطيّبةُ، كانت عطائي إليك. وكلامي اليومَ عطاءٌ آخرُ وهَبَتْني إيّاه السماءُ، فشكراً لها وحمداً.

ـ كلامكِ هذا هزَّ مشاعري. كم أنا بحاجة الى روحٍ شقيقةٍ ترتاح إليها روحي.

ـ أنا يا صديقُ مجرَّدُ شجرةٍ ناطقة. وأنت بحاجةٍ إلى إنسانةٍ تُقاسِمُك الحياة بأفراحها وأحزانها. فابحث لك عن فتاة تحبُّك.

ـ إنَّ روحي وقلبي يحنَّانِ إلى زوجة مخلصة وفيَّة تقاسمُني حياتي. ولكنْ أيَّة فتاة تقبل بالعيش معي في بقعة من الأرض كهذه البقعةِ النائية؟

ـ إنَّ شاباً مكتملَ الرُّجولة يتحلّى بصفاتٍ نبيلة كصفاتك، وجمالٍ كجمالك، لَجوهرةٌ ثمينة تتمنَّى الفتياتُ الحصولَ عليها.

ـ شكراً لتقديرك... ولكنْ من أين لي الوصولُ إلى فتاة جميلةٍ كريمة وأنا أعيش في عُزْلةٍ عن الدنيا، لا أهلَ لي ولا مَعارف؟

ـ لا عليكَ يا «بهاء»! إنّي أعرف فتاةً ذاتَ

أخلاق عالية وجمالٍ خارق تتمنَّى لو تتزوَّج بك.

ـ أحقّاً تقولين؟! أكاد لا أصدِّقُ ما أسمع! بالله عليكِ أرشديني إليها! كيف هي؟ زِيديني بها إيضاحاً ومعرفةً!

ـ لساني عاجز عن وصف بهائها وحُسنها، أمّا خِصالها ومَكارمُها فلا مَثيلَ لها على هذه الأرض. ولكنَّ لقاءها ليس بالأمر السَّهل. إنَّه يتطلَّبُ منك صبراً طويلاً، وجهداً كبيراً، وقُدرةً على تحمُّل الصِّعاب. فهل أنت قادرٌ على ذلك؟

ـ إنِّي قادر على كلِّ شيء، ولن أُباليَ بالصِّعاب مهما تكنْ. فلا وجودَ للمتستحيل عندي. حياتي كانت، ولا تزال، رمزاً للجهاد والصبر.

ـ إذاً دَعِ الأمرَ لي. نَم الآن يا صديقي،

وغداً، عندما تنتهي من أعمالك، أشرح لك بالتفصيل خُطَّةَ لقائك بفتاة أحلامك.

وأناختِ الشجرةُ أَغصانَها، وغطَّت بحنانٍ جسدَ «بهاء» الذي غرق في سُبات عميق.

* * *

رجَعت «سمايا» عن النافذة سعيدةً فرحة. ها هي قد حقَّقت قسماً من مشروعها. وعمَّا قريبٍ ستجتمع بفارس أحلامها. غداً مساءً ستعود فتُنطق الشجرةَ، وتشرح «لبهاء» طريقةَ اللِّقاء بها.

فكَّرت «سمايا» بالأمر طويلاً، وخطَّطت لكلِّ خطوة تمكِّنها من الاجتماع «ببهاء» على ضفَّة نهر الفضَّة الموازية للأرض. إلى هذا الشَّاطىء ستسبح برفقة وصيفاتها، وفي رِياضه وخَمَائله ستلتقيه. سيراها «بهاء»، ومن النَّظرة الأُولى سيقعُ

في حبِّها كما وقعت هي في حبِّه.

نادت «سمايا» صديقاتِها وأطلعَتْهُنَّ على ما جرى معها، وكاشفَتْهُنّ بما تنوي القيام به. وكانت مفاجأة أذهلت الفتياتِ: كيف تجتمع ابنة الفضاء بابن الأرض؟ أمرٌ مستحيل التحقيق! ولكنَّ «سمايا» كانت متمسِّكةً بقرارها، وعبثاً حاولت الفتياتُ إقناعَها بخطورة الأمر. وخاطَبَتْها «مُنايا»:

ـ يا عزيزتي «سمايا»، إنَّك حفيدةُ ربَّة الفضاء، وعلى عاتقك تقع مسؤوليَّةُ الإشراف على تنفيذ مشروع الوشاح السماويّ. فكيف، بحقِّ السماء، توفِّقين بين زواجك بابن الأرض ومَهامِّك في الفضاء؟!

ـ أَعرف خطورة وَضعي وصعوبةَ التوفيق بين حبِّي وواجباتي، ولكنْ ما حيلتي وقد أصبحتُ

أسيرةَ حبّي « لبهاء »، لا أُطيق العيش بعيدةً عنه؟ ساعِدْنَني يا صديقاتي.

تداولت الفتيات الوضعَ مطوّلاً، ثم اتّفقْن على اتّخاذ الخطّة التالية: ستجتمع « سمايا » « ببهاء » حالما ينتهي العملُ في الوشاح السماويّ، ومباشرةً بعد حفلة تدشين الوشاح المُقبل وبرفقة وصيفاتها ستقطع مياه نهر الفضّة إلى ضفّته المواجهةِ للأرض. هناك، بين الخمائل والرِّياض، ستلتقي حبيبها وتنتقل برفقته إلى الأرض، بينما تعود الوصيفاتُ إلى الفضاء. وفي الفضاء سيُحاولن إخفاءَ غياب « سمايا » عن جدّتها قَدْرَ المستطاع. ثمّ يتركْن حلّ المشكلة النهائيّ للظروف والقَدَر.

* * *

في مساء اليوم التالي انتهى « بهاء » من عمله،

وعاد إلى الشجرة مسرعاً، فجلس تحتَها ينتظر بشوقٍ متابعةَ حديث البارحة.

وفجأةً خاطبَتْه « سمايا » بلسان الشجرة:

ـ أهلاً بصديقي « بهاء ». كيف كان العمل اليومَ؟

ـ خيراً والحمد لله. ولكنْ لا أُخفي عنك أمراً. فقد شعرتُ لأوّل مرّة في حياتي ببطء ساعات النهار، وكنت أَنتظر بضيقٍ شديدٍ غيابَ الشمس لأعودَ إلى حديث البارحة.

ـ لا تنسَ موعظتي. فالصبرُ أوّلُ شرط لنجاح المشروع يا صديقي.

ـ أرجو عفوك يا صديقتي. فكلُّ ما أَرجوه هو معرفة الخطّة التي ستَهديني إلى فتاة أحلامي.

- بعد نهاية فصل الرَّبيع هذا ستغادرُ ديارَك باتِّجاه الشمال. فتسير، وتسير، مسافاتٍ طويلةً، تقطع فيها الأوديةَ والوِهادَ، حتى تصلَ إلى جبال عالية تكسوها الثلوجُ. فإلى أعلى قِمَّة فيها تتَّجه. ستلقى الأهوالَ في طريقك إليها. ولكنْ لا تيأسْ، بل أكملْ طريقَك. وعندما تقف على رأس القمَّة المذكورة ستشاهد هِضاباً وحقولاً تنتظرك على المَقْلَب الثاني من الجبال، فَتَنْزِلُ إليها بسهولة. ومن هناك تسير باتِّجاه الشمال حتى تصلَ إلى صحراءَ قاحلةٍ لا عُشبَ فيها ولا ماءَ. إستعدَّ لهذه الصحراء ببعض الماء والزَّاد. وحالما تنتهي منها ستلتقي طائراً أبيضَ كبيراً، يَهديك إلى أرضِ محبوبتك. وعليك أن لا تتوقَّفَ في الطريق إلاَّ لبضع ساعات من اللَّيل تستعيدُ فيها بعضاً من قوَّتك ونشاطك. ثمَّ تتابع سيرك مُسْتهدياً الطائرَ الأبيض.

« وبعد مسيرةِ أيَّامٍ وأيَّام تصل إلى رياض واسعة زاهرة لم تطأها رِجْلُ إنسان من قبلُ، يقفُ على بابها عملاقٌ جبَّار بيده سيفٌ من نار. حالما يراك يُسرع إليك ليقتلَك، ولكنَّ الطائر الأبيض سيضرِبُ على يده فيقعُ السيف الملتهِبُ منها. إذ ذاكَ تسرع في دخول الرِّياض قبل أن يَنهضَ العملاقُ من كَبْوَته. ويكون الطائر في انتظارك فيرشدك إلى ضفَّة نهر الفضّة. هل سمعتَ يا « بهاء » بنهر الفضَّة؟ إنَّه نهر عظيم ينبع من الفضاء وينزل الى الأرض، فيغذِّي أنهارها وينابيعها، ويروِّي أراضيها...

« على ضفاف نهر الفضَّة، بين الأشجار والأعشاب، تختبىء وتنتظر. وفجأةً تلوحُ أمامَك أربع حوريَّات لم تقع العينُ على أجملَ منهنَّ وأبهى. وفتاتُك يا « بهاء » واحدة من هذه الحوريَّات، بل

هي أَجملُهنَّ وأرشقهنَّ. وعليك أن تُنعمَ النظر فيهنَّ جيِّداً لتعرفَ مَن هي حبيبتك. وإيَّاك أن تُخطىء في الاختيار، فهناك المصيبة العُظمى، لأنَّها ستثور لجهلك، ومن الرياض تطردُك إلى غير رَجعة فتعود خاسراً، لا عروسَ ولا زواج...»

٤ ـ الطَّائِرُ الأَبْيَض

مضت الأيّام بطيئةً، بطيئة... وانغمس «بهاء» في أعماله يقتل الوقت قتلاً وهو على أحرَّ من الجمر. وأخيراً حان موعد سفره. وفي تلك الليلة هزَّتِ الشجرةُ الفتى بلطف قائلة:

ـ قُمْ يا صديقي، قمِ الآنَ واستعدَّ للسير قبل انبلاج نور الفجر.

نهض «بهاء» بعجلة، وقام إلى ثيابه فلبسها، وإلى زاده فحمله. وتقدَّم من الشجرة مُخاطباً:

ـ تمَنّي لي التوفيقَ أيّتُها الصديقةُ! فإنّني الساعةَ أشعر بالخوف. فماذا لو أخطأتُ في شيء ممّا ذكرتِه لي؟ وكيف تكون العاقبة عليّ؟

ردّتِ الشجرةُ بشيء من العِتاب:

ـ أتخافُ المغامرةَ يا صديقي؟ أين الوعودُ التي قطعتَها؟ أين حبّك الذي لا يخشى الصِّعابَ والمخاطر؟ سِرْ في طريقك، فربّة الفضاء ترعاك، وأنا هنا ألاحقك بدعواتي وصلواتي.

عادت الثقةُ إلى قلب «بهاء»، فحمل زاده وسار باتّجاه الشمال.

أنجز صاحبنا مراحل مسيرته الطويلة، فتمكّن من التغلّب على غدر المنحدَرات الرهيبة، والروؤسِ المسنّنة، وعلى لهيب رمال الصحراء التي

لا نهاية لها. قاوم مَخالب الجوع وحارب نار العطش. ولكنْ أين وصل في رحلته؟ إنّه لا يدري... فهو يسير باتّجاه الشمال، مستعيناً بالنجوم والكواكب، وبطلوع الشمس وغيابِها.

إستلقى على الأرض منهوكَ القوى وأخذ يخاطب نفسه: «سأستريح بضعَ ساعات. ألجوع يَنْهَش أمعائي، والعطشُ يجفّف أحشائي. ولكنّني سأكمل رحلتي ولو زحفاً على الأرض. سأصل إلى حيثُ الرياضُ، إلى حيثُ سألقى محبوبتي».

وراح يحلم بالسعادة التي تنتظره بعد هذا العذابِ المُضني. ثمّ دخل في سُبات عميق. ولكنّه ما لبث أن استيقظ على آلام الجوع والعطش فدبّ اليأسُ إلى قلبه، وكاد يُفقده كلَّ أمل... وفيما هو في صراع بين اليأس والرّجاء بانت تَباشيرُ الفجر،

وبدأت أشعَّةُ الشمس الخَجولُ تتسرَّب إلى أرجاء الكون. وتطلَّع « بهاء » حولَه، فلمح في البعيد أشباحاً واهية تغطِّي الأفق. حار في أمرها بادىء الأمر، ولكنَّه أدرك بعد تمعُّنٍ أنَّها أشجار!

وقف بثقةِ المطمئنِّ وانطلق نحوها تشدُّه إليها بمغنطيس خفيٍّ، حتى نسي تعبه، وبات لا يشعر بجوع ولا بعطش.

وعند غروب الشمس وصل إلى سياج عالٍ يحيط بأشجار باسقة، فانتابه شعورٌ بالطمأنينة غمر قلبه وحواسَّه. وطرق سمعَه تغريدُ الطيور وزقزقة العصافير. ثمَّ سمع زقزقةً طغت على سواها من الأصوات، فتطلَّع إلى مصدرها، فرأى طائراً أبيضَ كبيراً قد وقف إلى جانبه وبمنقاده ثمرةٌ كبيرة.. إنقضَّ « بهاء » على الثمرة يقْضِمُها بنَهَم. ولم

يكد يبتلعها حتى شاهد الطائرَ يحمل إليه واحدة أخرى. وظلَّ « بهاء » يأكل، والطائرُ يحمل إليه الثمار، حتى شبع وارتوى. فعاد إليه نشاطُه. وقام يستكشف عن مكانه، فوجد نفسه في روضة كبيرة تغطِّيها الأعشابُ والأشجار. فاستلقى على أرضها يستريح، ونام نوماً هادئاً لذيذاً.

إستيقظ على وخزة في أذنه، فلم يبالِ. وازدادت الوخزات وتلاحقت، ففتح « بهاء » عينيه بغضب...

كان الطائر الأبيض بقربه ينظر إليه! ضحك « بهاء »، ثمَّ راح يقهقه عالياً والطائر واقف بقربه لا يتحرَّك!.. فأمسك به وضمَّه بقوَّة إلى صدره! إنَّه صديق وفيٌّ لم يتركه في ساعات ضيقه. وها هو الآن ينبِّهه إلى مهمَّته. إنَّه الطائر الذي حدَّثَتْه عنه



الشجرةُ، وهو رفيقه الى آخر مرحلة من مراحل رحلته.

نهض « بهاء » وتابع سيره، والطائر يطير أمامَه. لفَّ الطائر حول الرياض و « بهاء » يتبعه، إلى أن رآه يحطّ على شجرة كبيرة. توقَّف « بهاء » وتطلَّع حولَه، وفجأةً شاهد عملاقاً جبّاراً يكاد جسده يغطّي مدخلاً كبيراً واسعاً... وبيده سيف طويل يتأجَّج باللَّهب.

تغلغل « بهاء » بين الأشجار الطويلة والأعشاب الكثيفة حتى صار قُبالةَ البوَّابة تماماً. نظر يبحث عن الطائر فوجده يدورُ حول الحارس دوراتٍ سريعةً مُذهلة. ولمّا شاهد العملاق الطائرَ أخذ يبتعد عنه خائفاً، والطائر يدور حوله ويدور. وفجأة انقضَّ على العملاق كالصاعقة، فضرب

ذراعه، ونقد بشدّةٍ أصابعَه فأدماها؛ فصاح العملاق ألماً ووقع أرضاً بعدما سقط السيفُ من يده. فانتهز «بهاء» الفرصةَ وقفز فوقه قفزةً هائلةً حطَّ بعدها داخلَ الرياض. وأجـال النظـرَ في المدى أمـامَـه، فوجد نفسه على ضفَّة نهر الفضَّة العظيم.

٥ - لِقَـاءٌ كأنَّـهُ الحُـلم

إختبأ «بهاء» بين الأعشاب والأشجار. وما هي إلاّ ثوانٍ حتى لاحت لناظرَيه أربع فتيات كالبدور طلعةً وضياءً. ما أَجمَلَهُنَّ، وما أروعَهُنَّ! وتعجَّبَ: جمال كهذا الجمال، ودلال كهذا الدَّلال، لا وجود لهما على هذه الأرض إطلاقاً!...

تُرى أيُّهُنَّ فتاتُه؟ إنَّه يكاد لا يميِّز بين واحدة وأخرى. ولكنَّه مـا لبـث أن سمَّـر أبصـارَه على إحداهنَّ: فقد جذبه إليها بسمةٌ ولا أَروع، ومشيةٌ



ولا أبدع، وجمالٌ متفرِّدٌ بين جمال رفيقاتها.

ربّاهُ!.. ها هو الطائرُ الأبيضُ يقف على كتفِها!.. لا بدَّ أن تكون هي فتاتَه المنشودة وأميرةَ قلبه!.. وصديقُه الطائر وقف على كتفها عن قصد. فقد أراد أن يُرشدَه إليها، فلا يُخطىءَ في الاختيار، وتضيعَ بالتالي أحلامُه هباءً.

راح يناجي نفسَه: كيف تقبل حوريَّةٌ كهذه بأن تكون له زوجةً؟ إنّها لا تليق إلاّ بمن هو عظيم القَدْر في الرجال. فكيف تقبل العيشَ في كوخ بسيط ككوخه؟ ولكنْ... ألم تؤكِّد له الشجرةُ استعدادَ الفتاة للزواج به؟ فلمَ الخوفُ إذاً، ولِمَ الحيرة؟

وفيما هو غارق في تأمُّلاته رأى الفتيات يختفينَ عن أنظاره وقد لفّتهُنَّ غمامةٌ ورديَّةٌ كبيرة. وبعد

لَحَظات سمع أصواتهنّ تخرج من النهر، وهنَّ يَسبَحْن ويتهادَين في مياهه السَّاحرة...

توجَّهَ «بهاء» إلى ضفَّة النهر فشاهد أربعةَ مَناديلَ حريريَّةٍ شفَّافة قد عُلِّقت على غصن إحدى الأشجار. إنَّها مناديلُ الحوريَّات الأَربعِ، كُنَّ يَطْرَحْنها على رؤوسهنَّ وأكتافهنَّ حين رآهنَّ «بهاء» لأوَّل مرَّة. وقد نزعْنَها الآن وعلَّقْنَها حيث هي قبل نزولهنَّ إلى الماء.

تعرَّف «بهاء» في الحال إلى منديل «سمايا»، فخطرت بباله فكرةٌ اطمأنَّ لها قلبُه. قال في نفسه مبتسماً: «سآخذُ منديلَها وأَجلِس هنا بانتظارها. وحين تخرج من الماء أُناولها المنديلَ. ثمَ أَبثُّها ما في قلبي من حبٍّ وأَطلب منها أن تتزوَّجَني!»

وأدركت «سمايا» بفائق قُدْرَتِها ما يَجول في

خاطر «بهاء»، فخرجت من النهر وقد غلَّفَتْها الغمامة الورديَّةُ. إقتربت من «بهاء» وتناولت من يده منديلَها قائلةً:

ـ أَهلاً بحبيبي! أَهلاً برفيق العمر وزوج المستقبل!

وأمسكت بيده، وسار الاثنانِ بين الرياض على مُحاذاة النهر العظيم.

أمّا الوصيفاتُ فقد خرجْنَ من الماء مسرعاتٍ لتحضير مأدبة الزِّفاف. وعلى العشب الأخضر، قرب ضفَّةِ النهر، فرشن غطاءً أبيضَ وضعنَ عليه أصناف الخُضرة والفاكهة. ثمَّ أَعددن أنواعاً من الطعام والحلوى. ومن عصير الفاكهة حضَّرن مشروباً منعشاً.

وحول المائدة جلس الجميع يأكلون ويشربون.

إلاّ أنَّ الوصيفاتِ كنَّ يأكلن مُكْرَهاتٍ: ففكرةُ بُعاد « سمايا » تمزِّقُ قلوبهنَّ.

وعند المَغيب وقفت « سمايا » مودِّعةً:

ـ أخواتي! حان وقتُ الفراق المؤلم. سأترككنَّ وقلبي يَقْطُرُ حزناً. ولكنَّ غيابي عنكنَّ لن يطولَ. فلنعشْ على أملِ لقاءٍ قريب.

وانهمرت الدموع من عينيها الخضراوَين، فأمسكت بيد حبيبها وسارعت تغادر المكان من بوَّابة الرِّياض وقد اختفى منها العملاقُ واحتلَّ مكانَه الطائرُ الأبيضُ، صديقُ « بهاء »، ورفيقٌ له.

وركبت « سمايا » على طائر و « بهاء » على الآخر. فطار بهما الطائران عالياً باتّجاه الجنوب.

وفي ثوانٍ معدودات حطّ بهما الطائران أمام

بيت « بهاء » الصغير. وكان أوّلَ ما فعله « بهاء » أنْ سار « بسمايا » مُسرعاً إلى صديقته الشجرةِ، ووقفَ قبالتَها فخوراً مزهوّاً، وهو يخاطبها بقوله:

ـ يا صديقتي الشجرة! أنظري! ها أنا قد عُدتُ بعروسي!.. أنظري إليها. تأمّلي فتنتها وبهاءها. صدقتِ وحقِّ السماء لمّا قلتِ لي إنّ جمالها لا يوصَف!

لم تجب الشجرةُ. وعاد يكلِّمها، ولكنْ من غير طائل. وحار المسكينُ لا يدري سبب سكوتها المفاجىء. أمّا « سمايا » فتبسَّمت سرّاً، ولكنّها عاهدتْ نفسها على أن تُصارحَ زوجها يوماً بأمر الشجرة ونُطْقِها.

٦ـ خَطْفُ « سَمَايَا »

مضت الليلةُ الأولى، وتبعتها ليالٍ وأيّامٌ وشهور عاش خلالها الزوجان سعيدين، ينعمان بحياة بسيطة هادئة. كانا ينهضان مع الفجر، فيذهب « بهاء » إلى عمله في الحقل، وتنصرف « سمايا » إلى أمور المنزل. وحين تنتهي تلحق به فتساعده في أعباء المزرعة.

وحملت « سمايا » من « بهاء »، ووضعت توأمين، صبيّاً وبنتاً. سُمّي الصبيُّ « ضياء »، وسمّيت البنت

« مَيْساء ». وكانت فرحتها بهما لا تقلّ عن فرحة « بهاء ». وكثيراً ما كان يترك عمله ليدخلَ البيتَ ولو لِلَحظاتٍ، فيقف متأمّلاً زوجته وهي تُرضع الطفلين الجميلين. وترعرع الصغيران، وكانت صحّتُها مدعاةَ فخر لوالديها. ودأبت « سمايا » تَخيط لهما الثيابَ البسيطة الجملية. وفي غمرة سعادتها الأرضيّة نسيت ماضيها نسياناً كاملاً، واحتفلت مع زوجها ببلوغ صغيريها السنةَ الأولى.

* * *

أمّا سكّانُ الفضاء فلم ينسَوا « سمايا » أبداً. وحاولت الصديقاتُ الثّلاثُ، بجهودٍ جبّارة، إخفاء أمر غيابها عن الجميع، فقُمن بواجباتها كافّةً، واعتقدن أنّ حيلتهنّ قد نجحت. ولكنَّ حسابهنَّ لم يصدق.

وهكذا ، بعد أيّام من اختفاء « سمايا » طلبتها جدّتها فطار صواب الصديقات الثّلاث : كيف يفسّرْنَ غياب « سمايا » ، ويفسّرْن مساعدتها ؟ ! ولمّا استدعتهُنَّ ربّةُ الفضاء دخلن عليها واجماتٍ حائراتٍ .

بادرتهنّ قائلة :

– أين حفيدتي ؟ أين « سمايا » ؟ . .

نظرت كلٌّ منهنّ إلى رفيقتَيها ، وهنّ لا يجسرن على البوح بالحقيقة . وعاد صوت ربّة الفضاء يعلو :

– أين « سمايا » ؟ أَجِبْنَ عن سؤالي !

تشجّعت « منايا » فقالت :

– إنّها على الأرض يا مولاتي !

– على الأرض ؟ ماذا تقولين أيّتُها الفتاةُ ؟

– نعم يا مولاتي . تركت « سمايا » الفضاء ولحقت بحبيبها « بهاء » إلى الأرض منذ أكثر من سنة من عمر الأرض ، أي منذ بضعة أيّام من عمر فضائنا .

ثمّ انطلقت « منايا » تخبرها بأمر حبّ « سمايا » و « بهاء » ، وصارحتها بأنّها وصديقتيها قد ساعدن « سمايا » على لقاء « بهاء » والزواج به .

أطرقت ربّة الفضاء قليلاً ، ثم رفعت رأسها وهي تحدّق في وجوه الفتيات الخائفات :

– كيف تجرؤ « سمايا » على مخالفة أوامري ؟

وردّت « هنايا » على سؤالها بجرأة وتحدٍّ :

– « سمايا » لم تخالف أوامر مولاتي ، لكنّها أطاعت أوامر قلبها ، هذا القلب الذي ينبض في

صدرها حبّاً وعطفاً على كلّ محزون يائس.

وتبسّمت ربَّة الفضاء معجَبة بجرأة «هنايا»، ثمّ قالت:

ـ أعجبتني صراحتُكُنَّ وجرأتكنّ في الدفاع عن صديقتكنّ. ألغلطة في حبّ «سمايا» هي غلطتي، فقد أهملت السهرَ على حفيدتي فكان ما كان. ولكنّني سأُعيدها إلى الفضاء، ولن أَدَعَها تبعد عنّي أبداً. إذهبي «سنايا»، ونادي على رئيس قادتي.

عادت «سنايا» بعد برهة برفقة رئيس القوّاد، فسجد لربَّة الفضاء، ثمّ انتصب ينتظر أوامرها. قالت:

ـ يا رئيس قوّادي! حفيدتي «سمايا» على الأرض، وأنا أريدك أن تعود بها إليّ حالاً.

ـ سمعاً وطاعةً يا مولاتي!

وانصرف القائد مسرعاً لتنفيذ مهمّته.

أمّا ربَّةُ الفضاء فالتفتت الى الوصيفات:

ـ عُدْن إلى أعمالكنّ... وسوف نلتقي قريباً بعد عودة «سمايا».

* * *

في تلك اللّحظات الحاسمة كانت «سمايا» على الأرض تضع طفليها في السرير. وبعد أن اطمأنَّت إلى رُقادهما لجأت إلى سريرها لتنام.

وفي منتصف الليل أفاقت المسكينة على يدين قويّتين تسحبانها من الفراش. أرادت أن تستغيث بزوجها، ولكنَّ الصيحة ماتت على شفتيها لمّا رأت

رئيس قوّاد الفضاء! إذ ذاك فهمت المسكينةُ أنْ لا فائدةَ من المقاومة، «فبهاء» عاجزٌ عن مصارعة هذا المارد العملاق. وحملها القائد وطار بها عالياً إلى الفضاء.

وما إن نَفَذَت من بوّابة الفضاء حتى تبدّلت ثيابُها، وتغيّرت ملامحها، وعادت إلى شكلها الفضائيّ السابق. وشاهدت رفيقاتِها حولَها فقبّلتهُنّ وهي تبكي، وسارت برفقتهنّ إلى قاعة العرش حيث كانت جدّتها بانتظارها. وسجدت أمامها كسيرةَ القلب والدموعُ تنهمر من عينيها مِدْراراً. فقالت لها ربّةُ الفضاء بعطف:

- إنهضي يا «سمايا»! إنهضي يا بنيّةُ، وكُفّي عن البكاء.

شَرِقَتْ «سمايا» بدموعها وهي تجيب:

- مولاتي! دَعِيني أَعود إلى طفليَّ، فهما صغيران ما يزالان بحاجة إليَّ! دعيني، أرجوك، أعود إلى بيتي وزوجي. فالبعاد عنهم لا يُطاق!

- أنت أميرة الفضاء يا بنيّتي! ولا حياةَ لك إلاّ فيه!

- رُحْماكِ يا جدّتي الحبيبة! أعيديني إلى بيتي، فهناك سعادتي وحياتي!

- دعِي أَمر الأرض وسكّانِها، وفكّري بالمهامّ التي تنتظرك كأميرة.

غادرت «سمايا» قاعة العرش، وقد أيقنت أنّ عودتها إلى الأرض أصبحت مستحيلة. فدخلت قاعة النسيج وهي تبكي، وعلى النّول أكبّت تعمل كآلة صمّاءَ لا روحَ فيها ولا حسّ.

٧- حِكْمَةُ الجَدَّة

مضت الأيّام وحزنُ « سمايا » يزداد عمقاً. وعادت إلى نافذة الفضاء تجلِس إليها وعيناها معلّقتان ببيتها الصغير. شاهدت زوجها يَجوب المزرعة باحثاً عنها. وكالمجنون دخل البيتَ مسرعاً، فأطعم طفليه الجائعين، وسقاهما بعض الحليب. وما لبثا أن استسلما للنوم. ثمّ خرج إلى شجرته المحبوبة، فجلس تحتها يندب حظّه العاثر.

ومن داخل الشجرة أخذت « سمايا » تخاطب زوجها محاولةً أن تخفّف عنه مصيبته:

- زوجتُك يا « بهاء » حوريَّة من حوريَّات الفضاء. إنّها حفيدة ربّة الفضاء، أحبّتْك منذ النظرةِ الأولى حبّاً جارفاً قويّاً دفعها إلى ترك عالمها والنزولِ إلى الأرض لتنعم برفقتك. ولكنَّ ربّة الفضاء ثارت وغضبت لمّا علمت بهربها، فأرسلت رئيس قوّادها ليعودَ بها حالاً. دخل قائد الفضاء بيتك ليلاً وسحب منه « سمايا » وأعادها قسراً إلى عالمها الأوّل. وهي الآن هناك بائسةٌ شقيَّة.

- ولكنْ ما ذنبي أنا؟ أريد زوجتي وأمَّ أطفالي. فلا لذَّة للعيش بدونها. بحقّكِ أَرشديني إلى طريقة تُعيدها إلينا.

- لن تعودَ « سمايا » إليك الآن. هي أسيرة الفضاء يا « بهاء »... إذهب وطفليك إلى شاطىء نهر الفضّة وانتظر هناك. ربّما رقَّ قلب ربّة الفضاء لمرأى

الطفلين وسمحت لزوجتك بالعودة إليك يوماً.

- سأعمل المستحيل لأعيد « سمايا ». وسأستعدُّ الليلةَ للرَّحيل إلى النهر.

* * *

لم ينم « بهاء ». وقبل طلوع الفجر جعل كلاًّ من طفليه في سلَّة، وعلَّق السلَّين بطرفَي عصاً غليظة، وحمل العصا على مَنْكِبَيه. قام يسير باتّجاه الشمال كما فعل في رحلته الأولى. ومضت الأيّام وهو يسير سيراً حثيثاً قاطعاً الأودية والجبالَ حتى أشرف على أبواب الصحراء. وهنا توقَّف، وقد دبَّ الخوفُ إلى قلبه: كيف يتحمَّل طفلاه ضراوةَ الصحراء؟ وفجأةً خفق قلبُ « بهاء »! إنَّه الطائرُ الأبيض الكبير، رفيق رحلته الأولى، يقف على الرمال وكأنَّه ينتظره! وبالفعل ما إن اقترب « بهاء »

منه حتى قام الطائر وهوى برِفقٍ على رأسه. ثمَّ تناول العصا وفي طرفَيها الطفلان وطار بها وهو يتقدَّم « بهاء ».

إمتلأ قلب « بهاء » بهجةً وسعادة، وتفاءل بعودة الطائر. وشعر بالنشاط بعد التعب الشديد، فسار بخطى ثابتةٍ يتبع الطائر. وبعد مسيرة طويلة وصل الجميع إلى مدخل الرِّياض، فتوقَّف « بهاء » ليستريح. شاهد الطائر الكبير يحطُّ على الأرض، وبرِفْقٍ شديد يضع حِمله الثمين على الأعشاب. ثمَّ دخل الغابة. وبعد فترة قصيرة عاد يحمل بمنقاده كميَّةً كبيرة من الأثمار اللذيذة تناولها « بهاء » منه، ومن عصير هذه الفاكهة سقى « ضياء » و « ميساء »، ثمَّ أكل بدوره حتى شبع وارتوى. ونام وطفليه طوال تلك الليلة.

وفي صبيحة اليوم التالي قام « بهاء » يستعدّ

لدخول الرياض، فدار حولها بحذر باحثاً عن بوّابتها الكبيرة وحارِسِها العملاق. فلم يجد لها أثراً. وظنَّ أنَّه أخطأ في البحث، فعاد يدور حولها باحثاً مدقِّقاً، ولكن من غير طائل. لقد سُدَّت أبواب الرياض بوجهه، ولا سبيلَ لدخولها.

وقام إلى الجدران يحاول تسلُّقَها. ورآه الطائر يقع عنها المرَّة بعد الأخرى، فأقبل عليه، وحمله بمخالبه وطار به إلى الجدران يحاول اجتيازَها. ولكنَّ الجدران كانت تزداد ارتفاعاً كلَّما ازداد الطائرُ تصعيداً في الجوّ. وظلَّت تعلو وتعلو، فلم يتمكَّن الطائر و « بهاء » من العبور فوقها. حطَّ الطائر على الأرض خائباً. وفهم « بهاء » واقع الحال، وتأكَّد أنَّ قوَّة خفيَّة تَحُول بينه وبين زوجته. فرمى بنفسه على الأرض وأخذ يبكي بحرقة وأسى. وفيما هو على هذه الحال من اليأس تقدَّم ولداه بخطى الطفولة

المتعثِّرة، وجلسا بقربه يمسحان عن وجهه الدموع. وفطن « بهاء » لوجودهما، فضمَّهما بشدَّة إلى قلبه.

شعر بالطمأنينة تعود إليه. وخاطب نفسه قائلاً:

ـ لا! لن أَدع اليأسَ يدخل قلبي! لقد أخفقتُ اليومَ ولن أُخفقَ غداً، سأظلُّ أحاول وأحاول حتى أستعيدَ زوجتي، ولو قضيت العمر كلَّه محاولاً.

وقفل عائداً مع طفليه إلى مزرعته.

* * *

شاهدت « سمايا » من نافذتها محاولة « بهاء »، ورأته يعود حزيناً وحيداً إلى مزرعته. فذاب قلبها عليه، وتمنَّت لو تَفديه بحياتها. وأسرعت إلى الشجرة لتحدِّثه بوساطتها.

وكان حديث الشجرة بلسماً لجروح قلبه. فراح

يجلس بقربها كلَّ مساء، يبثُّها أحزانه وهمومه. وكانت هي تُصغي إليه فتنصحه وترشده. وهكذا انقضى عام كامل، وأصبح الطفلان في عامهما الثاني.

وفي الفضاء عاشت «سمايا» في عزلة حتى عن صديقاتها المخلصات اللَّواتي حاولن، جاهدات، التخفيف من وحدتها. ولكنْ عبثاً. وظهرت نتائج القهر والحزن جليَّة على مُحَيَّاها الجميل، فغارت عيناها، وذَبُلَ خدّاها، بعد ما فقدت كلَّ أمل في لقاء عائلتها.

أمّا ربَّة الفضاء فكانت تراقب ما يجري في الفضاء وعلى الأرض. ولاحظت شحوب حفيدتها وشرودَها. فحاولت أن تخفِّف عنها وتستميلها. أغدقت عليها الهِباتِ الثمينةَ، ولكن من غير

جَدْوى. فقد ظلَّت «سمايا» شاردةَ العقل تعمل كالآلة جسداً بلا روح.

عاد الطائر الأبيض من مهمّته الأخيرة على الأرض، فلاحظ شقاء «سمايا». وكان قلبه يقطر دماً كلّما رآها تبكي، فصمَّم أن يساعدها على لقاء زوجها وطفليها. وفي أحد الأيّام دخل على ربَّة الفضاء، وكان طائرَها المفضَّل، تحنّ إليه وتسعد بوجوده. فأمسكت به تداعبه:

- طائري المدلَّل الغالي!.. طال غيابك عنّي كثيراً!

وردّ الطائر بصوت واضح جليّ:

- سلاماً ومحبَّة لمولاتي المعظَّمة!

صاحت بذهول:



ـ أنت تنطق! إنَّها لمعجزةٌ!

ـ نعم يا مولاتي! إنَّها لمعجزة. إنّ حزن « سمايا » وأساها أدميا قلبي، وفجَّرا الكلماتِ من داخلي. أرجو من ربّة الفضاء أن تتطلّع قليلاً من نافذتها إلى الأرض، إلى تلك البقعة المُخْضَوْضِرة فيها، إلى الشابّ الحزين يطعم طفلين صغيرين.

وحدّقت إلى حيث أشار الطائر، فشاهدت « بهاء » يطعم « ضياء » و « ميساء ».

وعاد الطائر يقول:

ـ مولاتي، رُحماك! إنّ الشابَّ هو زوج حفيدتك « سمايا ». وهذان هما طفلاها. أعيدي الأمَّ والزوجةَ إلى عُشّها الزوجيِّ فتعودَ السعادةُ إلى قلب الجميع!

أطرقت ربّةُ الفضاء لحظاتٍ قصيرةً، ثمّ رفعت رأسها وحدّقت الى الطائر مَلِيّاً. قالت له:

ـ أيها الطائرُ الجاهل! أتظُنّني في غفلةٍ عمّا يدور في الفضاء وعلى الأرض؟ إنّني أعرف «بهاء» و«ضيـــاء» و«ميســاء». كما أنّني داريـــةٌ بحبّ «سمايا». ولكنّني أردتُ التأكُّد من صدق هذا الحبِّ ومتانتِه. ولقد لمستُ ذلك مؤخّراً. لمسته في محاولة «بهاء» لقاءَ «سمايا». إنّ حبّاً كهذا يجب أن لا يموت. وحزن حفيدتي وتعاستها الدائمةُ برهانٌ آخر على ديمومةِ هذا الحبِّ. إذهـبْ يـا طـائـري الجميل إلى «سمايا» وبَشِّرْها بقرب لقائها زوجَها وطفليها. وعدْ حالاً إليّ لأنّني سأرسلك في مهمّة إلى الأرض.

وصَفَق الطائرُ بجناحيه بهجةً وحبوراً:

ـ مولاتي المعظّمة! ما أَرحمَ قلبَك، وما أَعظم حكمتَك! سأطير الساعةَ إلى الأميرة «سمايا» أَزِفُّ إليها الخبرَ المفرح.

٨ ـ نِعمَةُ الفَضَاءِ وَالأَرضُ

غادر الطائر الأبيضُ الفضاءَ متوجِّهاً إلى الأرض. ودخل على « بهاء » وأخبره بالنبإ السعيد، فكانت فرحةٌ ما بعدَها فرحة! وفي باكورة اليوم التالي قام الشابُّ بمغامرته الثالثة والأخيرة، وأمامه سار الطائرُ « بميساء » و« ضياء »، فوصل الجميع إلى الرياض قرب نهر الفضَّة.

ومن بوّابتها الرحبة العريضة دخل « بهاء »، وقد سبقه الطائر الكبير. ومن بعيد شاهد « سمايا » على الشاطىء الآخر تلوِّح له بيدها. ناداها بصوت مغرورِق بالدموع، وحار في كيفيَّة الوصول إليها، وقد فصلت بينهما مياهُ النهر. وفجأة هبطت أعداد

من طيور الفضاء على صفحة الماء، ومن أجسادها المتراصَّة صنعت جسراً وصل شاطىء الفضاء بشاطىء الأرض. وعلى جسر الطيور ركض « بهاء »، وطفلاه بين ذراعيه. وما إن وصلوا إلى « سمايا » حتى سارعت إلى طفليها فاحتضنتهما، وأخذت تقبِّلهما بلهفة وشوق. ثمّ ارتدّت إلى زوجها فارتمت على صدره سعيدةً فرحة. وضمَّها « بهاء »، وشدَّ أحبَّاءه الثلاثة إلى قلبه غيرَ مصدِّقٍ سعادتَه!

ومن نافذة الفضاء أطلَّت ربَّته تراقب الأحبَّة. سالت الدموع من عينيها تأثُّراً، وشعرت بسعادة بالغة تغمر قلبها الكبير، لأنّ حبّ « سمايا » و« بهاء » حبٌّ صادق متين.

وفوق رؤوس الأحبَّة رفرف طائرُنا الأبيض



الكبير. واقترب من «بهاء» يشدُّه بثيابه، و «بهاء» لاهٍ عنه، غيرُ شاعر بوجوده. واقترب الطائر من «سمايا» وناداها قائلاً:

ـ مولاتي الأميرة! أمرتني ربَّة الفضاء بأن أرافقكم إلى بيتكم الجديد...

فصاح «بهاء» بذهول:

ـ الطائر! إنّه يتكلّم يا «سمايا»! إنّها، وحقّ السماء، معجزة جديدة!

ـ إنَّها معجزةُ حبِّنا الكبير! لقد نطق الطائر ليجمع شَمْلَنا الممزَّق، ويدافع عن حبِّنا الضائع. ولقد وفَّقه اللهُ إلى ذلك.

وأمسكت «سمايا» بيد «بهاء» وسارت به بين الرياض والرَّياحين. وأمامهما طار الطائر، وعلى ظهره

استوى كلٌّ من « ضياء » و « ميساء » وهما يضحكان عالياً .

* * *

أطلعت « سمايا » زوجَها بالتفصيل على الدور الكبير الذي لعبه الطائر . ثمّ عادت فصارحته بكلّ ما أخفت عنه من أمور ، ولا سيّما كلام الشجرة وأحادِيثها الطويلة معه ، ثمّ سكوتها المفاجىء يومَ عادت وإيّاه إلى أرضه .

قطعوا مسافاتٍ شاسعة بين البساتين المليئة بالأشجار والأزهار . وفجأةً لاح لهم قصرٌ فخم عظيم وقف الطائر ببابه . وتساءل « بهاء » متعجّباً :

ـ أهذا حقّاً بيتُنا ؟ وهذه الحدائق الغنّاء لنا ؟ وهذا النهر الصغير كذلك ؟ إنّها الجنّة يا « سمايا » ، دخلناها من غير أن ندري !

ـ لا يا « بهاء » ! لا يا حبيبي ! هذا بيتنا ، وهذه حدائقنا . وهي هديّة ربّة الفضاء ، جدّتي . هنا سنعيش حياتنا معاً . تعالَ معي لنخرجْ إلى الحقول ، فإنّي أتوق إلى ذلك .

وسارت « سمايا » « ببهاء » ، ومعهما طفلاهما ، حتى أوصلتهم إلى بقعة من الأرض كبيرة :

ـ هذه الأرض الواسعة خصّصتها ربّة الفضاء لك . تزرع فيها ما تشاء من مزروعات الأرض وخضرتها ونباتاتها .

وضمّ « بهاء » « سمايا » إلى قلبه :

ـ سعادتي لا توصَف يا حبيبتي . فلديّ الآن كلُّ شيء : زوجة ، وأولاد ، وبيتٌ ، وأراضٍ ، فشكراً لك ، وحمداً لربّة الفضاء العظيمة الكريمة .

* * *

مضى الأسبوع الأوّل بالراحة والاستجمام. وكان الزوجان يستيقظان صباحاً فيهرعان بطفليهما إلى الحقول الواسعة، فيستكشفان عن نباتاتها ويتعرّفان إلى حيواناتها. وكثيراً ما جلسوا جميعاً تحت الأشجار تعبين يأكلون ما جمعوه من ثمار لذيذة.

واجتذب النهرُ أنظار «بهاء». فكان يجلِس إلى شاطئه يتأمّل مياهه الهادئةَ الناعمة. وأخيراً أقدم على دخوله للمرّة الأولى، وكان خائفاً وَجِلاً. وما لبثت «سمايا» أن علّمته أصول السباحة. وهكذا فعلت مع «ميساء» و«ضياء». وصارت العائلة تقضي في السباحة ساعاتٍ وساعات، ثمّ تعود إلى الشاطىء المظلّل بأشجار الصفصاف تستريح.

إنقضى الأسبوع الأوّل سريعاً. ثمّ قام «بهاء» إلى الأرض الواسعة الخالية يعمل فيها. فلحها، ثمّ

زرعها بالخضرة والحبوب والأشجار المثمرة. وكان سعيداً بحياة الجدّ والعمل، وبمراقبة تسلسل مواسم العطاء.

أمّا «سمايا» فانصرفت لتربية ولديها الحبيبين وإدارة بيتها الكبير. إلاّ أنّ مهامّها الأرضيّة لم تصرفها عن مهامّ الفضاء، فكانت تترك زوجها وأولادها ليلاً وهم نيام فتدخل الفضاء وتنضمّ إلى وصيفاتها، فتعمل معهنّ في نسج رداء السماء الأزرق الجميل.

وعاشت العائلة في وفاق ووئام. وقالت «سمايا» يوماً «لبهاء»:

ـ صارِحْني يا زوجي العزيز: هل أنت سعيد في حياتك هذه، بعيداً عن سكّان الأرض والفضاء؟

ـ إنَّ سعادتي لا توصف يا حبيبتي، فلديَّ الزوجةُ المخلصة المحِبَّة، ولديَّ ولدان جميلان، وبيتٌ كبير، وأرض مخصبة كريمة. هذه هي أسباب سعادتي.

* * *

ومضت الأيَّام والسنون والعائلة تنعم بظلِّ الفضاء والأرض، لا تعرف طعماً للهمِّ ولا مذاقاً للشقاء.

محتوى الكتاب

	الصفحة
١ ـ وِشاح السَّماء.	٧
٢ ـ إنبثاق الحياة.	٢٨
٣ ـ سرُّ الشَّجرة الناطقة.	٣٣
٤ ـ ألطَّائر الأبيض.	٤٧
٥ ـ لقاء كأنَّه الحلم.	٥٥
٦ ـ خَطْف «سمايا».	٦٢
٧ ـ حكمة الجَدَّة.	٧٠
٨ ـ نعمة الفضاء والأرض.	٨٢

وكان الفراغ من طبع هذا الكتاب في
يوم ٣٠ نيسان (ابريل) ١٩٨٢
على مطابع دار غنــدور ش.م.م.
بـيروت

١٦٦ / ٤ - ١٩٨٢


جُوزَفين مَسْعُود
سَمايا
بيت الحكمة
بيروت